الاشتراكية الصهيونية بين الحقيقة والخيال والتزييف: دراسة نقدية لتجربة الكيبوتز الاسرائيلي

الدكتو خالد محمود الكومي

مقدمة :

الاشتراكية والصهيونية شيئان مختلفان ومصطلحان لا يلتقيان أبداً ، منطقياً أو أيديولوجياً ، لأنهما ـ بحكم التعريف ـ مفهومان متناقضان ومتنافران مضموناً ودلالة .

لا ينكر هذه الحقيقة ولا يشكك فيها أي مفكر تجرد عن الهوى ، حتى بعض المفكرين ورجال السياسة من الاشتراكيين اليهود . فالمستشار النمساوي الدكتور برونو كرايسكي مثلاً قد أكد هذه الحقيقة ـ فكرياً وفلسفياً ـ حينما حدد بوضوح موقفه الثابت ـ كاشتراكي ـ برفض مطلق للفكر العنصري بكل صوره ومظاهر التعبير عنه جملة وتفصيلاً ، ولكل ما يترتب من نتائج على نظريات التفوق العرقي أو العنصري ، بدعوى تميز عرق على عرق أو عنصر على آخر ، ذلك أنه يرفض المقدمات والأسس التي قد شيدت عليها مثل تلك النظريات[1] .

الصهيونية عند كرايسكي ـ لا يمكن أن تلتقي والاشتراكية ، لأن الصهيونية « تمثل عنصرية ونوعاً من التصوف الانثروبولوجي لست مستعداً لقبولها . . . . » على حد تعبيره[2] .

رغم ذلك فإن الحركة الصهيونية العالمية قد استطاعت في بدايات هذا القرن أن

تخترع صيغاً توفيقية تلفيقية للجمع بين أضداد ومتناقضات يستحيل التقاؤها إلا على يد منظري فكر وحركة الصهيونية العالمية . من بين هذه الصيغ الشهيرة مقولة « صهيونية العمل الاشتراكي » Labour- Zionism أو ما قد يطلق عليها ـ مجازاً ـ تعبير الاشتراكية الصهيونية .

ونجحت الصهيونية العالمية في أن تجعل قطاعات كبيرة من مثقفي الغرب وبعض مثقفي الشرق تكاد تؤمن بأن الصهيونية والاشتراكية صنوان !

هناك من يرجع جذور الاشتراكية الصهيونية (وانتقالها بعد ذلك إلى فلسطين) إلى أوساط أولئك المهاجرين اليهود الذين جاءوا إلى فلسطين من أوروبا الشرقية خصوصاً من روسيا وبولندا ، ذلك أنه كانت توجد في روسيا ، قبل الحرب العالمية الأولى ، أربعة أحزاب يهودية اشتراكية[٣] . هذه الأحزاب هي : ١ ـ العصبة اليهودية أو البون[٤] Bund ٢ ـ الحزب الصهيوني الاشتراكي ٣ ـ حركة عمال أو كادحي صهيون Toilers of Zion والمعروفة عادة باسم بوعالي زيون[٥] Polalei Zion ثم ٤ ـ حزب العمال اليهودي الاشتراكي . تلك الأحزاب عدا العصبة اليهودية أو البوند كانت جميعاً تعتنق الأيديولوجية الصهيونية لدرجة التشبع الكامل ، بينما ظلت البوند ـ في الحقيقة ـ مناوئة للصهيونية ، إذ تعتبرها بمثابة « قومية البورجوازية الصغيرة » ، وترى أن اليهود أينما عاشوا فهم يشكلون جماعة سكانية معينة ، لكنها لا يجوز لها بأي حال أن تتحدث باسم جميع اليهود[٦] .

أولاً : الاشتراكية والصهيونية : استمالة التزاوج :

هذه المجموعة من الأحزاب اليهودية السابق الاشارة إليها تسترت خلف اسم الاشتراكية ورفعت شعاراتها بينما ظل ولاؤها الأول والأخير للأيديولوجية الصهيونية بمحتواها العنصري والاستيطاني التوسعي (على حساب أراضي ومصالح شعوب أخرى) . لذلك فإن هذه الأحزاب هي نفسها التي مهدت الطريق لاسرائيل ـ فيما بعد ـ لكي تتغلغل داخل التنظيمات العمالية والاشتراكية منذ وقت مبكر ، فهي التي ساعدت مبكراً على تقديم إسرائيل إلى رابطة الدولية الاشتراكية حتى قبل قيام الرابطة بشكلها ووضعها الراهنين منذ عام ١٩٥١ ، حيث عبدت الطريق أمامها لتصير واحدة

من أهم الدول المؤسسة للرابطة ، عندما أعيد تشكيلها وأعلن عن قيامها رسمياً بموجب إعلان فرانكفورت لعام ١٩٥١ ، ممثلة في حزب العمل الاسرائيلي بزعامة دافيد بن جوريون .

هناك من حاول تقديم تأصيل لظاهرة ارتباط اليهود بالحركات الثورية والاشتراكية منذ أوائل القرن الحالي ارتباطاً قوياً لا بد وأن يدعو إلى التأمل . يذهب المفكر اليساري الاسرائيلي مكسيم غيلان Maxim Ghilan ـ مثلاً ـ إلى أن أهمية الدور الذي لعبه اليهودي في الانتفاضات الثورية في أوروبا الشرقية كان راجعاً إلى حد كبير إلى حقيقة أن الكثيرين منهم كانوا من العمال ، ذلك أن ظاهرة « اليهودي الغني » ـ فيما يرى غيلان ـ كانت أقل ظهوراً نسبياً في أوروبا الشرقية عنها في أوروبا الغربية ؛ ذلك أن كثيراً من اليهود في أوروبا الغربية كانوا ينتمون ـ بالفعل ـ إلى الطبقات الوسطية المستغلة (بكسر الغين) ، بينما كان كثير من اليهود في أوروبا الشرقية ، في نفس تلك الفترة الزمنية ـ ينتمون إلى الطبقات التي كانت أكثر خضوعاً للاستغلال من الناحية الاقتصادية ، « وغالباً ما كان ذلك بطريقة بربرية للغاية وبأسلوب قاس . . . »[٧] . على حد عبارته . لكنه لا يلبث أن يعود فيقرر بأنه رغم ذلك فإن كل اليهود قد عملوا في تلك الأوقات كجماعة واحدة وكشعب منفصل أو قوة منفصلة as a Separate people or element مكونين فيما بينهم « تناقضات طبقية داخلية ، ولكن أيضاً مع استمرار وجود مصالح مشتركة فيما بينهم . . »[٨] .

وعلى الرغم من أن غيلان قد حاول الاجتهاد لتقديم تفسير مقبول أو حل معقول لتلك المعادلة ذات الطرفين المتناقضين : الاشتراكية والصهيونية ، فإنه لم يفلح في مهمته هذه ، خاصة عندما يكون الأمر مرتبطاً بتفسير عدم الانسجام أو التجانس ـ من النواحي المنطقية والفكرية والفلسفية ـ بين قضية الاشتراكية من ناحية ، وظاهرة (وأيديولوجية) الصهيونية العنصرية الاستيطانية في فلسطين من ناحية أخرى . من هنا يلاحظ أن أفكاره في هذا الصدد قد جاءت أقرب إلى الغموض والخلط والفجاجة . تأمل قوله ـ مثلاً ـ بأن « . . . المعتقدات العتيقة من ناحية ، والاستغلال الطبقي العرقي الذي عاناه اليهود من ناحية أخرى ، قد سمحت معاً بظهور السمة الليبرالية للاشتراكية الصهيونية المقترنة برأسمالية المستوطن (بكسر الطاء) ليهود فلسطين . . . »[٩] .

(ولعل القارىء يلاحظ مدى الغموض والتضارب في عبارات غيلان : قارن

النص الأصلي لعباراته بالانجليزية كما جاءت في الحاشية رقم ٩ بالهامش) .

بغض النظر عما قد ذهب إليه غيلان الذي لم يستطع أن يتخلص نهائياً من صهيونيته ، فإننا نجد ـ من الناحية التاريخية ـ أن أفكار اليهود « الثوريين » الذين كانوا يأملون في القضاء على معاداة السامية أو اللاسامية عن طريق القضاء على جذورها القومية في أوروبا ، أي عن طريق ثورة اشتراكية ترمي إلى تشييد مجتمع جديد لا يعترف بالفوارق القومية ، بحيث لا يكون فيه بالتالي مكان للاسامية ، قد اصطدمت بشدة بمعارضة تيودور هرتزل وأتباعه . ذلك أن هؤلاء الداعين إلى الفكر الثوري بالمعنى المتقدم يعتبرون في نظر هرتزل وأتباعه إنما يدعون إلى انقاذ اليهود عن طريق تذويبهم ، أي عن طريق انقراض الشعب اليهودي ، وهو الأمر الذي كان مرفوضاً صهيونياً[١٠] .

من ثم ظلت حركة العصبة اليهودية (البوند) الممثلة لهذا الاتجاه إلى حد كبير ، وظل موقفها المعادي للصهيونية على ما هو عليه ، وبالتالي رفض الدعوة إلى الهجرة إلى فلسطين (ثم إلى إسرائيل بعد قيامها) ، تماماً مثلما رفضت العنصرية الرأسمالية .

إزاء هذا الوضع المتعارض مع هوى ومصلحة الحركة الصهيونية العالمية من جانب هذا القطاع العمالي اليهودي ، اضطرت الصهيونية أن ترتدي بعض مسوح الاشتراكية ، لجذب الطبقة العاملة اليهودية خاصة في أوروبا الشرقية حيث نشأت ونشطت حركة العصبة اليهودية (البوند) المعروفة بعدائها للصهيونية .

يتحدث دافيد بن جوريون في كتابه الشهير : بن جوريون ينظر للوراء ، عن صعوبة إقناع أعضاء الحركات الثورية اليسارية اليهودية بالحل القومي / العنصري للمشكلة اليهودية الذي نادت به الحركة الصهيونية . من هنا فقد لجأت هذه الحركة إلى حيلة تغليف دعوتها ببعض المظاهر والسمات الاشتراكية من أجل الترغيب ومحاربة جاذبية وبريق الحركات الثورية اليسارية عند بعض أعضاء الطبقة العاملة اليهودية في أوروبا الشرقية . تفتق ذهن الحركة الصهيونية عن فكرة إقامة نظام المستعمرات الزراعية الجماعية أو المزارع الجماعية (الكيبوتزات والموشاف) التي بدأت في الانتشار على أرض فلسطين في مطلع القرن الحالي لكي تصير بمثابة قاعدة زراعية / عسكرية لغزو فلسطين من الداخل ، وإقامة دولة صهيونية فيها ، بعد طرد أهلها ، ثم لحماية الدولة

اليهودية بعد قيامها ، وكذلك ، لإضفاء طابع اشتراكي هو أقرب للغلاف منه إلى الجوهر[١١] .

قبل أن نتعرض لتفصيلات موضوع المزارع الجماعية اليهودية في فلسطين ، سوف نشير إلى تلك المحاولات المثمرة التي بذلتها الحركة الصهيونية في أوائل هذا القرن لزرع الصهاينة وسط الاشتراكيين تطبيقاً للمبدأ الصهيوني الذي اخترعته البوعالي زيون والقائل : الاشتراكيون وسط الصهاينة والصهاينة وسط الاشتراكيين ، من خلال تحليل العلاقة بين بوعالي زيون وحركة العمل الاسرائيلي .

ثانياً : حركة الاتحاد العالمي لعمال أو كادحي صهيون (بوعالي زيون) وعلاقتها بحركة العمل الاسرائيلي :

نشأت حركة البوعالي زيون ـ تاريخياً ـ في إطار ازدهار حركة الصهيونية العالمية في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، ورغم أنها قد ولدت أصلاً في شرق أوروبا بين الحركات العمالية اليهودية الصهيونية خاصة في منطقة غرب روسيا وبولندا وانتقلت مع المهاجرين اليهود من شرق أوروبا إلى فلسطين ، إلا أنها قد ترعرعت وازدهرت بشكل خاص في انجلترا . ومن هناك اتخذت نقطة انطلاق جديدة إلى معظم انحاء العالم الغربي .

تقدم الاتحاد العالمي لعمال صهيون أو بوعالي زيون بثلاثة طلبات إنتساب إلى الدولية الاشتراكية في المرحلة السابقة على عام ١٩١٤ وخاصة في الأعوام ١٩٠٧ و١٩٠٨ و١٩١١ ، بيد أن هذه الطلبات جميعاً قد رفضت من قبل الدولية التي وصف روادها الصهيونية بأنها « وليدة القومية وليست وليدة الاشتراكية »[١٢] .

غير أن دائرة المعارف اليهودية تلاحظ أنه مع نهاية القرن التاسع عشر أخذت تخف إلى حد كبير موجة العداء للسامية بين صفوف الحركة الاشتراكية في أوروبا الغربية ، وإن ظلت قوية في دول أوروبا الشرقية . وتضيف أن الدولية الاشتراكية ـ أثناء الحرب العالمية الأولى ـ قد غيرت من اتجاهها ازاء الشعب اليهودي ، وأضحت أكثر وداً تجاه القضية اليهودية ، إلى أن اعترفت ـ في عام ١٩١٩ ـ بأن اليهود قومية ، كما اعترفت بحقهم في « إقامة مركز قومي لهم في فلسطين » ، بل وأكثر من ذلك ، أعطى بعض الاعضاء البارزين في الدولية تأييدهم الأدبي للصهيونية ، فيما تذهب دائرة المعارف اليهودية[١٣] .

يعد هذا الذي حدث في إطار حركة الدولية الاشتراكية بالنسبة للحركة الصهيونية تحولاً تاريخياً خطيراً لأنه كان بمثابة تتويج للجهود الدؤوبة التي بذلتها حركة الصهيونية العالمية لاختراق تنظيم الدولية الاشتراكية ، أسفر هذا التحول أيضاً عن قبول كل من الاتحاد العالمي لعمال صهيون جنباً إلى جنب مع العصبة اليهودية (البوند) كعضوين في الدولية الاشتراكية .

وأنجزت بوعالي زيون ـ عن طريق فرعها البريطاني ـ نجاحاً ضخماً آخر لا يقل خطورة عن ذلك الذي حققته في صفوف الدولية الاشتراكية خلال نفس الفترة الزمنية تقريباً . فقد تمكنت من التوصل إلى الاختراق الكامل إلى قلب حزب العمال البريطاني ومعظم قياداته ، بحيث استطاعت تسييره ـ إنطلاقاً من ذلك ـ على مدى الخمسين عاماً التالية (على الأقل) خاصة فيما يتعلق بالشرق الاوسط والقضية الفلسطينية ، وفقاً ـ بطبيعة الحال ـ وما يتمشى مع المصلحة الصهيونية الهادفة إلى إقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين على حساب شعبها الأصلي ، بل وضد المصلحة البريطانية ذاتها ، في كثير من الأحيان .

كتب بير بوروخوف Ber Boro chov (الذي تعده الحركة الصهيونية واحداً من بين أبرز أولئك المنظرين الأيديولوجيين لحركة العمل الصهيوني) ، في ١٢ مارس ١٩٠٩ مقالاً عن « العامل اليهودي Der Yiddisher Arbeiter » ملاحظاً بأن حركة بوعالي زيون في بريطانيا إنما يجب النظر إليها باعتبارها « ظاهرة فريدة في نوعها في إطار الحركة العالمية لعمال صهيون ، إذ أنها تتميز بخصائصها الذاتية » .

وأوضح بير بوروخوف أن فروع بوعالي زيون في بريطانيا كانت قد وجدت حتى قبل المؤتمر الصهيوني العالمي السادس في عام ١٩٠٣ ، وأن أغلبية الاشتراكيين الصهاينة » تمركزوا في لندن وليدز . إن أولئك ـ فيما ذهب بير بوروخوف ـ لم يعتبروا أنفسهم القوى التقدمية لليهودية فحسب ، ولكنهم اعتبروا أنفسهم أيضاً « رأس الحربة في كل غرب آسيا » (الشرق الأوسط) ، وأعدوا برنامجاً من أجل مستقبل البنيان الاجتماعي والاقتصادي لاسرائيل ، كان الهدف منه أن كل شخص يجب أن يعطي حسب قدراته ويأخذ حسب حاجته . . . . »[١٤] .

ولعل هذه الفترة الأخيرة تكشف مدى الارتباط العضوي المبكر بين حركة بوعالي زيون وحركة الصهيونية العالمية في توجهها نحو فلسطين والشرق الاوسط ، لتنفيذ

مخططات الاستيطان الصهيوني وإقامة الدولة اليهودية ، حتى قبل صدور وعد بلفور بوقت طويل ، ويمكن القول ـ ما دام الحال كذلك ـ أن حركة بوعالي زيون كانت الواجهة الاشتراكية أو القناع الاشتراكي الذي تسترت خلفه الصهيونية العالمية منذ أوائل هذا القرن .

فلقد دعت بوعالي زيون البريطانية ـ في ربيع ١٩٠٦ ـ إلى مؤتمرها الوطني الأول الذي انعقد في مانشستر حيث تقرر انشاء لجنة مركزية لكل فروع بوعالي زيون في بريطانيا . وفي ديسمبر ١٩٠٦ في أعقاب الهجرة اليهودية الجماعية من روسيا وبناء على طلب فروع بوعالي زيون في الولايات المتحدة والنمسا وروسيا ، دعت إلى عقد المؤتمر الوطني الثاني في ليفربول ، وهو الذي سمي بالمؤتمر التأسيسي لحركة بوعالي زيون في بريطانيا حيث تبنى المؤتمر « **سياسة اشتراكية صهيونية راديكالية** » على حد ما جاء في الكتاب اليهودي السنوي لعام ١٩٦٧ . في ذلك المؤتمر وقف المنظر الايديولوجي الصهيوني المعروف ناخمان سيكرين Nachman Sykrin ليعلن بأن مهمة البوعالي زيون لم تكن سوى العمل على « **جعل الصهاينة وسط الاشتراكيين والاشتراكيين وسط الصهاينة** » ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف وضع أتباع بوعالي زيون إطاراً للعمل روعي فيه أن يكون برنامجاً موجزاً بسبب ضيق الوقت أمامهم .

إنطلاقاً من الهدف السابق تضمن نشاط بوعالي زيون منذ عام ١٩٠٦ وحتى نشوب الحرب العالمية الأولى ، العمل من أجل نشر الصهيونية . واشتركت بوعالي زيون مع الفيدرالية الصهيونية الانجليزية في القيام باتصلات مكثفة مع حزب العمال البريطاني والاتحادات العمالية اليهودية وغير اليهودية والدوائر العمالية الأخرى ، والعمل على محاربة الفكر الأيديولوجي لحركة العمل اليهودي من اتباع العصبة اليهودية (البوند) ، وضد الفوضويين[١٥] ، أي ضد كل من حاول معارضة مبادىء الصهيونية السياسية والايديولوجية وضد نشر تلك المبادىء حتى من اليهود أنفسهم .

يحدثنا جورجي في الكتاب السنوي الصهيوني عن دور بوعالي زيون في التمهيد لاصدار وعد بلفور ، إذ يشير إلى قيام هذه الحركة بتعميق الاتصالات المكثفة مع حزب العمال البريطاني في عامي ١٩١٦ و١٩١٧ بحيث أثمرت تلك الاتصالات عن قيام حزب العمال البريطاني بتوزيع مذكرة عن أهداف الحرب تضمنت فقرة واضحة عن الحقوق اليهودية في عالم ما بعد الحرب العظمى الأولى . كان ذلك قبل ثلاثة شهور

فقط من إعلان وعد بلفور في الثاني من نوفمبر ١٩١٧ ، « الذي فتح عصراً جديداً للصهيونية » ، على حد تعبير جورجي .

وفي ديسمبر ١٩١٧ عقد حزب العمال البريطاني بالاشتراك مع الاتحادات العمالية البريطانية ـ في القاعة المركزية بـ« وستمنستر » مؤتمراً خاصاً تمت فيه الموافقة على مذكرة أهداف الحرب ـ السابق الاشارة إليها ـ متضمنة الفقرة المتعلقة بحقوق اليهود .

وفي فبراير ١٩١٨ لم تلبث حركة بوعالي زيون أن نجحت في أن تجعل مؤتمر الاحزاب الاشتراكية والعمالية في دول الحلفاء يتبنى تلك المذكرة الخاصة بأهداف الحرب بما في ذلك فقرة حقوق اليهود ، بطبيعة الحال .

وهكذا كان من بين نتائج الاتصالات المكثفة بين بوعالي زيون وحزب العمال البريطاني ، بل ولعل من بين أهم تلك النتائج جميعاً ، وتطبيقاً لمبدأ « صهاينة وسط الاشتراكيين واشتراكيين وسط الصهاينة » الذي تبناه أتباع بوعالي زيون في مؤتمرهم التأسيسي ، كما سلفت الاشارة ، أن أعلن في سبتمبر ١٩٢٠ ـ رسمياً ـ عن انضمام حركة بوعالي زيون البريطانية إلى حزب العمال البريطاني ، ومنذ ذلك الوقت ، أخذت هذه الحركة تشارك مشاركة رسمية وفعلية في عمل ونشاط الحزب ، بعد أن أعلنت قبولها لمبادئه ومثله القائمة على الاشتراكية الديمقراطية .

في نفس ذلك العام (١٩٢٠) بعثت حركة بوعالي زيون بأول وفد يمثلها إلى المؤتمر السنوي لحزب العمال البريطاني ، « وهو الوفد الذي قدم نموذجاً للحديث عن توصيات بشأن الشرق الاوسط . . »[١٦] . من وجهة النظر الصهيونية المحضة ، بطبيعة الحال .

خلال فترة العشرينات اشترك ضيوف عماليون صهيونيون من فلسطين في نشاط بوعالي زيون . من بين أولئك شخصيات لعبت ـ فيما بعد ـ أدوارا رئيسية في سياسة الدولة اليهودية بعد قيامها من أمثال موشيه شاريت (أول وزير خارجية اسرائيلي) ، وجولدا مائير (رئيسية الوزراء الاسرائيلية السابقة) ، ومثل شلومو كابلانسكر Shlomo Kaplansky وبيرل كاتز نلسون Berl Katzenlson وكلها شخصيات لمعت بعد ذلك في محافل السياسة الداخلية والخارجية لدولة اسرائيل .

وفي نفس ذلك العام (١٩٢٠) أيضاً افتتح في لندن المكتب السياسي لأحود عولامي أو بوعالي زيون العالمية (واسمها الرسمي بالانجليزية : Ihud Olami- World Poale Zion) كحلقة من حلقات الانتشار العالمي لتلك الحركة الصهيونية .

شهدت الأعوام ما بين ١٩٢٠ ، و١٩٢٦ وما بين ١٩٢٨ و١٩٣١ ومن ١٩٣٢ إلى عام ١٩٣٨ فترات نشاط مكثف قامت في أثنائها بوعالي زيون البريطانية بالدور السياسي الرئيسي في النشاط الصهيوني العالمي .

قبيل الحرب العظمى الثانية أعيد تشكيل اللجنة السياسية لعمال فلسطين تحت رئاسة بيرل لوكر Berl Locleer وكان من بين اعضائها د. ليفنبرج Dr Levenberg وموشيه روسيتي Moshe Rosetti وبرويدو Broido ونات جاكسون Nat Jackson إذ نشطت هذه اللجنة بعد الحرب بالنسبة لما يتعلق بالصعوبات التي أثيرت أمام فلسطين اليهودية (هكذا بالأصل) خلال فترة (إرنست) بيفن . . »[١٧] .

وفي عام ١٩٤١ وقع بيرل لوكر ود. ليفنبرج اتفاقية انضمام بوعالي زيون إلى الفيدرالية الصهيونية الانجليزية التي أكدت على التعاون الوثيق «فيما يتعلق بالجوانب البناءة للعمل الصهيوني في كل مجالات النشاط »[١٨] .

وعقب قيام إسرائيل في عام ١٩٤٨ برز الأعضاء القياديون من حزب حركة بوعالي زيون الذين كانوا قد هاجروا إلى فلسطين على مسرح السياسة الاسرائيلية (ومن بينهم موشيه روسيتي الذي شغل منصب كاتب الكنيست الاسرائيلي منذ عام ١٩٤٨ ، ونات جاكسون Nat Jackson الذي أصبح فيما بعد سفيراً لاسرائيل لدى النرويج في عامي ١٩٦٦ - ١٩٦٧ .

كانت منظمة بوعالي زيون قد ساعدت ـ في الاربعينات ـ على انشاء منظمة « النساء الرائدات في بريطانيا العظمى » ، والتي أصبحت فيما يشير الكتاب السنوي الصهيوني ـ «فريدةً بين التنظيمات النسائية اليهودية في عملها السياسي من أجل اسرائيل ، حيث قامت باتصالات واسعة من خلال زوجات مشاهير أعضاء البرلمان البريطاني من اليهود والصهاينة من أمثال م. ميكاردو M.Mikardo وأورباخ Orbach وسيلفرمان Silverman وغيرهم[١٩] .

أما منظمة شباب بوعالي زيون فقد قامت هي الأخرى بدور نشط في عمليات تهجير أعضائها إلى اسرائيل . وبعد عام من حملة اسرائيل على سيناء ، أي في عام

١٩٥٧ قامت بوعالي زيون بانشاء « منظمة أصدقاء إسرائيل العماليين » خلال المؤتمر السنوي لحزب العمال البريطاني المنعقد في ذلك العام في بريتون (بانجلترا) ، إذ تشكل هذا الجهاز من شخصيات عمالية يهودية وغير يهودية لها نفوذها من بين أعضاء البرلمان وزعماء آخرين في المجالات السياسية والمدنية[٢٠] .

هذه الحقائق المستقاة من مصادر يهودية صهيونية ، ذات أهمية بالغة لادراك المدى الذي وصلت إليه قوة جماعة الضبط الصهيوني والاسرائيلي داخل حزب العمال البريطاني من زمن بعيد ، وقدرتها على التأثير في اتجاه المصلحة الاسرائيلية والصهيونية ، سواء كان الحزب في الحكم أو في المعارضة . وقد رأينا موقع حركة بوعالي زيون في هذا الصدد .

ومن هنا لم يكن مستغرباً أنه في مارس ١٩٦٦ عندما احتفلت البوعالي زيون بمرور ستين عاما على قيامها في بريطانيا ، أن يرسل رئيس وزراء بريطانيا وزعيم حزب العمال البريطاني ـ وقتذاك ـ هارولد ويلسون ببرقية تهنئة حارة يشيد فيها بالمركز المتميز الذي أصبحت تشغله البوعالي زيون في حركة العمل في كل من بريطانيا واسرائيل ، تماماً مثلما فعل ليفي أشكول زعيم حزب العمل الاسرائيلي ورئيس وزراء اسرائيل في ذلك الوقت . وينوه ويلسون في برقيته بذلك « العام المتميز لمنظمة متميزة كان اسهامها محل اعتبار في حركة الديمقراطية الاجتماعية البريطانية سواء من حيث الاشخاص أو الأفكار »[٢١] . ولم ينس أشكول ـ بدوره ـ في برقيته أن يعترف بفضل البوعالي زيون البريطانية على اسرائيل من حيث « أن الأفكار والمثل المتجسدة في بوعالي زيون قد تركت تأثيرها الذي يستحيل إنكاره في كل مرحلة من مراحل إقامة دولتنا التي حققها روادنا . . »[٢٢] . إن أشكول بذلك ـ وفي ضوء التحليل السابق لدور بوعالي زيون في إقامة الدولة اليهودية في فلسطين وفي ضوء العلاقة العضوية مع حركة العمل الاسرائيلي ، لم يقصد مجرد تقديم عبارات مديح وثناء تقتضيها المجاملة في مثل تلك المناسبة ، وإنما قد أقر بحقيقة موضوعية ثابتة في هذا المضمار .

ثالثاً : الكيبوتز الاسرائيلي كجوهر لفكرة العمل الصهيوني Labour- Zionism أو الاشتراكية الصهيونية : أين الحقيقة ؟

إن كلمة كيبوتز Kibbutz هي مفرد للكلمة العبرية « كيبوتزيم » وتعني : جماعة[٢٣] .

يلاحظ أن قادة حركة العمل الصهيوني ثم قادة حركة العمل الاسرائيلي بعد قيام الدولة اليهودية ، قد ركزوا ـ وهم يقدمون حركة العمل الصهيوني في فلسطين إلى العالم الخارجي ، وخاصة إلى التنظيمات والحركات العمالية والاشتراكية العالمية وفي مقدمتها رابطة الدولية الاشتراكية ، على ابراز التعاونيات والمزارع الجماعية اليهودية مثل الكيبوتز والموشاف Moshav في محاولة ترمي إلى إخفاء صورة الطابع الاشتراكي على الدولة اليهودية .

أما الكيبوتز فقد أطلقت عليه جولدا مائير زعيمة حزب العمل الاسرائيلي (الماباي) ورئيسة وزراء اسرائيل السابقة ، إسم « الكوميون الاشتراكي » ، في حين أوضحت أن الموشاف هو « القرية التعاونية »[٢٤] .

ويهمنا هنا التركيز على تجربة الكيبوتز لأنه قد احتل مكانة خاصة ونال اهتماماً وتركيزاً كبيرين لدى فلاسفة ومنظري الحركة العمالية الصهيونية في فلسطين ثم في إسرائيل ، في سعيهم نحو رسم صورة ذلك المجتمع الاشتراكي الديمقراطي في الدولة اليهودية حتى قبل قيام إسرائيل في عام ١٩٤٨ .

فالكيبوتز عبارة عن مستعمرة زراعية في المقام الأول ، وصناعية إلى حد ما ، تقوم على مساحة من الأرض تتراوح بين من ٥٠٠ إلى ٢٥٠٠ فدان ، يقطنها عدد من الأسر يتراوح عددها عادة بين مائة ومائة وخمسين عائلة . بدأت التجربة ـ في مراحلها الأولى ـ في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، مع بداية تكثيف نشاط حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، إذ أقيم أول كيبوتز يهودي في داجانيا Degania ، ثم أخذ المستوطنون الصهيونيون في التوسع في إقامة الكيبوتزات بعد الحرب العالمية الثانية ، ثم بعد قيام دولة إسرائيل في عام ١٩٤٨[٢٥] .

يعتبر الكيبوتز وحدة اقتصادية ـ اجتماعية للانتاج والحياة الاجتماعية في اسرائيل . ومر الكيبوتز ـ كتجربة ـ بعدد من المراحل والتطورات المختلفة إلى أن وصل إلى شكله الراهن .

قدر انتاج الكيبوتزات الاسرائيلية في عام ١٩٥٧ ـ مثلاً ـ بحوالي ٣٠٪ من الناتج الزراعي الاجمالي العام في اسرائيل ، إضافة إلى ٥٪ من الناتج الصناعي الاسرائيلي . وفي عام ١٩٥٨ ـ مثلاً ـ بلغت نسبة ممثلي سكان الكيبوتزات في الكنيست (البرلمان)

الاسرائيلي حوالي ٢٥٪ من مجموع مقاعده ، وهؤلاء يمثلون بعض الأحزاب العمالية الاسرائيلية في نفس الوقت .

وترجع أهمية الكيبوتز في الحياة العامة الاسرائيلية ـ فيما يذهب الكاتب الاسرائيلي يوسف شاتيل ـ إلى عوامل الدفاع والنشاط الثقافي إلى حد معقول[٢٦] .

ومن يقرأ لمعظم الكتاب والفلاسفة الاسرائيليين والصهيونيين عن الكيبوتز يلمس بوضوح مدى تمجيدهم لهذه التجربة باعتبارها تجربة فريدة من حيث تطبيق الاشتراكية والديمقراطية والعدالة والمساواة ، إلى آخر صفات المجتمع الاشتراكي الديمقراطي المثالي[٢٧] .

فالنظرية الفلسفية لتجربة الكيبوتز قد وجدت تعبيرها الأكثر وضوحاً عند واحد من أشهر الفلاسفة اليهود هو مارتن بوبر Martin Buber ، في مقالة كتبها في كتاب : طريقة جديدة في الحياة[٢٨] ، فقد كتب مارتن بوبر تحت عنوان : « تجربة لم تفشل» مستعرضاً تداعي البنيان الاجتماعي في مرحلة الرأسمالية المتقدمة وعجز النظم الاشتراكية (في مرحلة رأسمالية الدولة) عن بناء روابط اجتماعية تشمل جميع مرافق الحياة المعاصرة . وجد بوبر الحل لهذه المشكلة في النظام التعاوني الكامل ، الذي حاولت بعض الجماعات الاشتراكية تطبيقه في أوروبا وأمريكا خلال المائة والخمسين سنة الماضية ، لكن هذه المحاولات قد باءت بالفشل عدا تجربة واحدة . ويرى بوبر أن ، هناك تجربة جادة واحدة لخلق المجتمع التعاوني الكامل حتى الآن هي تجربة القرى الجماعية اليهودية (الكيبوتزات) في فلسطين (ص١٣٥ من مارتن بوبر) ، إذ يعزو بوبر أسباب عدم فشل تجربة المستعمرات الجماعية في اسرائيل إلى سببين رئيسين : أما الأول فيكمن في تأثر مؤسسة الكيبوتز بظروف ولادتها والأموال السائدة في فلسطين ملاءمتها للحاجات التي أوجدت من أجلها ، أما الثاني فهو العامل الايديولوجي أو المثالي أيضاً (ص١٣٦ ـ ١٣٧ من مارتن بوبر) وغايته خلق الانسان الجديد والمجتمع الجديد .

وفي الحالتين يبدو الحافز الصهيوني وراء الكيبوتز غاية في الوضوح ، متمثلاً في هدفي الاستيطان اليهودي وتشريب النشء اليهودي بالعقيدة المذهبية للصهيونية السياسية كما يراها آباء الصهيونية وروادها . فالكيبوتز في النظرية والتطبيق الصهيونيين هو

وحدة دفاعية بالمعنى العسكري مثلما هو وحدة انتاجية ووحدة اقتصادية إجتماعَية في إطار ثقافي معين .

ورغم أن الكتاب الاسرائيليين (ورجال السياسة فيها) فضلاً عن بعض الكتاب الصهيونيين خارجها يؤكدون على أن الكيبوتز تجربة مستقلة بذاتها من حيث فرادتها وذاتيتها المميزة عما سبقها أو عاصرها أو لحقها من تجارب مشابهة ، فإن واقع الحال يدل بوضوح على أن تجربة الكيبوتز في النظرية والتطبيق لا يمكن أن تخرج عن أنها خليط من الأفكار والمبادىء التعاونية التي وضعت الاشتراكية المثالية (الخيالية) بذورها حينما اقترنت بأسماء مثل أوين وفورييه وبلانكي من ناحية ، وفكرة التعاونية الجماعية السوفييتية أو الكولخوز (Kolkhoz) ، من ناحية ثانية ، فضلاً عن فكرة الكوميون (Commune) التي طبقتها الثورة الشيوعية في الصين الشعبية بعد عام ١٩٤٩ على نطاق واسع من ناحية ثالثة ، إضافة إلى بعض الملامح والمواصفات الخاصة ـ بطبيعة الحال ـ التي ارتبطت بظروف الهجرة اليهودية إلى فلسطين ثم إلى اسرائيل بعد قيامها ، من أبرزها الجوانب العسكرية القائمة على عمليات التلقين المذهبي المكثف لاعضاء الكيبوتز حتى يستوعبوا العقيدة الصهيونية، ويصير ولاؤهم الأول والأخير لها وللدولة اليهودية . بعبارة أخرى يصير الكيبوتز ـ والحال كذلك ـ معسكراً دفاعياً ومذهبياً في آن واحد يستهدف غسل مخ الأعضاء الجدد المنضمين إليه وجعلهم يتخلصون مما يكون ما زال عالقاً بوجدانهم من عاطفة نحو أوطانهم السابقة التي جاءوا منها إلى « أرض الميعاد »(!!) ، وإعدادهم الاعداد الصهيوني المطلوب ليكون كل واحد منهم مواطناً صالحاً ـ بالمفهوم الصهيوني ـ في الدولة اليهودية .

وحتى أكثر المتحمسين لفكرة الكيبوتز اليهودي حينما حاول تمجيد التجربة لم يستطع أن ينكر أن التجربة اسرائيلية ، وهي نتاج اسرائيلي قح ، ولذلك فهي غير قابلة للتصدير إلى الخارج ، على حد ما جاء في مقالة الكاتب الاسرائيلي يوسف شاتيل ، المشار إليها آنفاً .

ثم إن الكيبوتز ـ مثلما عبر أحد أولئك المتحمسين للدفاع عن تجربته ـ لم يستطع أن يخفي أنها بمثابة « تجربة للشيوعية في أنبوبةاختبار في إطار مجتمع اقتصادي رأسمالي مختلط . . »[٢٩] .

وبغض النظر عن الترويج الدعائي لصالح تجربة الكيبوتزات اليهودية ، من حيث

كل ما قد قيل عن فرادتها وتميزها في مختلف أشكالها وتطوراتها ، فإن الفكرة الأساسية لم تخرج عن مفهوم أو مضمون فكرة توظيف هذه المستعمرات من أجل تحقيق عدد من الأهداف الصهيونية المرسومة مسبقاً .

يمكن إيجاز أهم هذه الأهداف في النقاط التالية :

أ ـ استيعاب المهاجرين اليهود الجدد وربطهم بالأرض والبيئة الجديدة « في أرض الميعاد بالقرب من صهيون » ، حسب مقولات الدعوى الصهيونية ، لوضع حد للشتات اليهودي (أو الدياسبورا) ، بغض النظر عن تشتيت أهل البلاد الأصليين من الفلسطينيين في دياسبورا من نوع جديد أكثر قسوة من تلك التي عاناها اليهود ، رغم ما قد يقال بعكس ذلك من قبل أجهزة الدعاية الاسرائيلية والصهيونية .

ب ـ العمل على خلق الاندماج السكاني والاجتماعي المفتقد بين جماعات اليهود المهاجرين الجدد الذين استقدمتهم الحركة الصهيونية إلى فلسطين من شتى بقاع الدنيا ، بحيث تصير حياة المستعمرة الجماعية أو الكيبوتز آداة وبوتقة لصهرهم في إطار العقيدة الصهيونية وتعليمهم اللغة العبرية لتحل محل الخيط غير المتجانس من لغاتهم الأصلية التي جاءوا بها معهم إلى هذه الأرض الجديدة بالنسبة لهم . ومن ثم تصبح العبرية التي يتعلمونها في برامج مكثفة في الكيبوتزات وسيلة ربط بين اليهود من مختلف الجنسيات شرقاً وغرباً .

حـ ـ يصير الكيبوتز بمثابة معسكر بالمعنى الأيديولوجي حيث تقوم الصهيونية فيه بعملية التلقين المذهبي للأعضاء الجدد من خلال عمليات الاقناع والايحاء التي قد تصل إلى حد غسيل المخ للبعض (إذا لزم الأمر) ، من أجل خلق المواطن الصهيوني الجديد الملتزم بالعقيدة الصهيونية قلباً وقالباً .

د ـ خلق طبقة عاملة يهودية جديدة لم تتعود من قبل على أداء مثل هذا النوع من الخدمة أو أن تعيش مثل هذا الأسلوب من أساليب الحياة العمالية في إطار زراعي صناعي .

و ـ محاولة تحقيق فكرة اشتراكية العمل الصهيوني Labour- Zionism على الطبيعة وبالكيفية التي تراها الحركة الصهيونية ، لتغليف أسلوب الحياة في المستوطنات اليهودية بالغلاف الاشتراكي .

ز ـ اعداد أعضاء الكيبوتز وتدريبهم على نوع من الحياة العسكرية شبه الاسبرطية بحيث يغدو كل كيبوتز وحدة عسكرية قائمة بذاتها ، تمثل خط هجوم وحصن دفاع في نفس الوقت في أرض ما زال أصحابها الأصليون يطالبون استردادها .

ورغم كل ما يقال عن مزايا تجربة الكيبوتزات من حيث مطابقتها للأفكار والمبادىء الاشتراكية ، وعن حرية الانضمام أو الانفصال عن الكيبوتز لأي عضو من أعضائه ، وعن الديمقراطية الداخلية المطبقة فيه من حيث اتخاذ القرار المتعلق بشؤون الكيبوتز من قبل كل أعضائه في ديمقراطية شبه مباشرة ، وعن العدالة والمساواة بين أعضائه وابنائهم من حيث التنشئة والتربية والتعليم ، إلى آخر ذلك من السمات الايجابية التي يقول بها أنصار الكيبوتز ، إلا أن كل ذلك لا يمنع ابراز حقيقة أساسية وهي أن الكيبوتز لم يكن سوى أداة أو وسيلة بيد الحركة الصهيونية لتحقيق هدف الاستيطان اليهودي في فلسطين وتحويلها بهذه الطريقة إلى دولة يهودية تحقق أحلام معتنقي الحركة الصهيونية وروادها الأول .

والخلاصة : أن الكيبوتز الذي تفاخر به إسرائيل والصهيونية باعتباره تجربة ناجحة للتطبيق الاشتراكي الديمقراطي ، هو في التحليل الموضوعي النهائي ليس سوى أسلوب اشتراكي تعاوني للحياة على الطريقة الصهيونية ، وسط نظام إقتصادي وإجتماعي رأسمالي مختلط ، في إطار من الأيديولوجية الصهيونية . وهو يمثل في النهاية محاولة للتوفيق والتزاوج بين نقيضين: الاشتراكية والصهيونية ، فهل يلتقي الضدان ؟!

الحواشي

(١) **انظر في تفصيل ذلك :**
Bruno Kreisky, **L'Autriche entre L'Est et L'Ouest** (Paris: Editions Stock, 1979), pp.79-90.

(٢) **Ibid,** p.88.

(٣) **انظر** : ليلى القاضي ، **الهستدروت** (بيروت : مركز الأبحاث الفلسطينية ، ١٩٦٧) ، ص٨٥ .

(٤) وهي التي كان يطلق عليها أيضاً « اتحاد عموم العمال اليهود لليتوانيا وبولندا وروسيا » ، إذ ظهرت إلى حيز الوجود عام ١٨٩٧ ، وضمت بصفة أساسية الحرفيين اليهود وغيرهم من العناصر العمالية

شبه البروليتارية اليهودية في الأجزاء الغربية من روسيا . من المعروف أن لينين اتخذ من هذه الحركة موقفاً معارضاً واعتاد أن يشير إلى اتباعها Bundists على أنهم من أتباع حركة الديموقراطية الاجتماعية ، على ما هو معروف تاريخياً وفلسفياً عن موقف الماركسية ـ اللينينية من رفض قوي عنيف لهذا التيار الاشتراكي باعتباره تياراً « تحريفياً رجعياً » من وجهة النظر تلك . **لمزيد من التفصيل في هذه النقطة راجع :**

Roman Brodshy, **The Truth About Zionism** (Moscow: Novosti Press Agency Publishing House, 1974),p.11.

(٥) كان التزام هذه الحركة بالعقيدة الصهيونية أقوى من أي التزام آخر ، وهي التي أصبحت تشكل ـ فيما بعد ـ حزب العمل الاسرائيلي بالمعنى العمالي النقابي Syndicalist وسوف نعرض في موضع لاحق من هذه الدراسة بشيء من التفصيل للدور الخطير الذي لعبته هذه الحركة في إطار التزييف السياسي لتكريس علاقة سفاحية بين الاشتراكية والصهيونية .

(٦) **راجع :** B.Kreisky, **L'Autriche entre L'Est et L'Onest, op. cit,** pp.83-84.

(٧) **أنظر ,** Maxim Ghilan, **How Israel Lost Its Soul** (England: Penguin Books Lte, 1974) p.24

(٨) Maxim Ghilan, **Ibid.**

(٩) **Ibid, and it reds:** «...Archaic belief on one hand, and Cruel class - and - race exploitation threy had suffered on the other, gave rise to the liberal brand of settler- Capitalism Cum- Zionist- Socialism of the Jews of Palestine».

(١٠) د. فايز صايغ ، **الدبلوماسية الصهيونية** (بيروت : مركز الأبحاث الفلسطينية ، ١٩٦٧) ، ص٤٥ .

(١١) **راجع في ذلك : عبد الوهاب الكيالي ، الكيبوتز أو المزارع الجماعية في إسرائيل** (بيروت : مركز الأبحاث الفلسطينية ، ١٩٦٦) ، ص١٠٤ وما بعدها .

(١٢) دافيد واتكنز ، « حزب العمال البريطاني وقضية فلسطين » ، **شؤون فلسطينية** ، العدد ٤٧ (تموز / يوليو ١٩٧٥) ، ص١٨١ .

(١٣) **The Standard Jewish Encyclopaedia.** (New York: Doubleday, Inc., 1966), pp.1734-35.

(١٤) **راجع في ذلك :** P.S. Gourgey, «Sixty Years of British Poale Zion» **in** : Rabbi Dr. Joseph Litvin (ed.), **Zionist Year Book,** September 1966- September 1967 (London: The Zionist Federation of G.Britain and N.Ereland, 1967), pp.352-55.

(١٥) **Zionist Year Book, Ibid. See also:** Heigh Harris (ed.), **The Jewish Year Book** (London: Jewish Chronicle Pablications, 1967), p.63.

(١٦) **Zionist Year Book, op. cit,** p.354.

(١٧) **Ibid**

(١٨) **Ibid.**

(١٩) **Ibid.**

(٢٠) **Ibid.**

(٢١) **Ibid,** p.352.

(٢٢) **Ibid.**

(٢٣) عبد الوهاب كيالي ، **الكيبوتز أو المزارع الجماعية في اسرائيل** ، م.س.ذ ، ص٢٤ .

(٢٤) Golda Meir, «Independent Israel», **In: Israel 25 Years** (Jerusalem: Information Division, Israel Ministry for Foreign Affairs, 1973), p.7.

(٢٥) Yosef Shatil, «Kibbuts in Israel», **New Outlook,** Vol.1, No.12 (July- August 1958), p.28.

(٢٦) **Ibid,** pp.28-29.

(٢٧) **انظر في هذا مثلاً :**

Joseph Shatil, «The Economic Efficiency of the Kibbutz», **New Outlook,** Vol.9, No.7 (82) (September 1966), pp.32-39.

Eliyahu Kanovsky, **«The Economy of the Israeli Kibbutz** (Cambridge: Harvard Middle Eastern Monograph Series, Harvard University Press, 1966).

(٢٨) **هذا الكتاب عنوانه** : A New Way of Life; The Collective Settlement of Israel وهو لمجموعة من الكتاب صدر في لندن عن « شيندلر وجولب » بالتعاون مع الجمعية الانجليزية ـ الاسرائيلية ، **نقلاً عن** : عبد الوهاب كيالي ، **الكيبوتز أو المزارع الجماعية في اسرائيل** ، م.س.ذ.، ص١٠٥ ـ ١٠٦ .

(٢٩) **راجع :** Yosef Shatil, «Kibbutz in Israel» **Op. cit,** p.34.